تفسير حضور الأسطورة في الدين؟

إنّ فهم الأساطير يتحقق في ضوء سياقها التاريخي والواقعي، فالسياق التاريخي يكسبها مسوغا ما، في حين كسبها السياق الواقعي غايتها أوارتباطها بقصدها. فنصوص الخلق مثلا سواء في الأساطير السومرية والبابلية أم في التوراة اليهودي أم في الديانات الاخرى، لم يكن القصد منها تسلية السامعين، فهي ترتبط بمعنى. فالبابليون مثلا كانوا يعيدون في كل احتفال برأس السّنة تمثيل انتصار مردوخ على قوى الفوضى في أول أيام السنّة الجديدة، عندما خلقت الدنيا، فكانوا ينشدون في هذا الاحتفال الحولي ملحمة الخليقة.

ومن الضروري التميز بين الأسطورة المرتبطة بقصد ما، وبين الأسطورة كخيال وهمي، فمن الواضح أنّ النصوص المعبرة عن خلق الإنسان في التوراة والأساطير– قد ارتبطت أساسا بعمليات العبادة ، مهما يكن شكلها وطريقتها. وعنيت برصد الجزء الكلامي من الطقوس قبل أن تصبح " حكاية" لهذه الطقوس.

ويمتاز ذلك الجزء بقوى سحريّة خفيّة حتى ليتمكن منشده من أن يسترجع الموقف الذي يصفه.[1] وهذا الذي يطلق عليه بالأسطورة الطقوسيّة.[2]

فتوظيف المجتمع للأساطير في ثقافته الدينية، تقديم أساس للمعتقدات لممارساته الشعائرية الكبرى. وبالتالي فالأسطورة في هذا الحال هي ليست تعليلية، بل تسويغية، إيمانية، فهدفها ليس إشباع الفضول، بل تثبيت الإيمان. وهي توجد لا لضمان الفكر التساؤلي، المتسائل لماذا؟ بل لضمان الفكر العملي وسؤاله كيف يكون الشيء إن لم يكن هذا؟ ومن ثمّ يكون هدفها تسويغ العبادات والاعتقادات معا.

هذا من جهة، من جهة أخرى يمثل الدين ثقافة كاملة لشعب أو أمة أو حضارة، ليس في كونه مجموعة نصوص وتعاليم وقيم فحسب، بل بما هو كيان مجسد اجتماعيًا. ومبلور بالممارسة في أنماط وتقاليد وأفعال، أي من حيث صيرورته نظاما من الممارسات فضلا عن كونه نظاما من التصورات.

---

[1]– يراجع: صلاح فليفل الجابري، الدين والأسطورة والعلم،منشورات الاختلاف،الجزائر،2012م ص: 16.

– أحمد كمال زكي، الأساطير دراسة حضارية مقارنة، دار العودة، بيروت، لبنان، ط2 ، 1975م، ص: 36.

[2]– يقسم أحمد كمال زكي الأسطورة إلى أقسام:

الأسطورة الطقوسية– الأسطورة التعليلية والأسطورة الرمزية والتاريخسطورة.

يراجع، أحمد كمال زكي، المرجع نفسه، ص:36 .

فالدين ثقافة كاملة.، يعبر عن رؤيته للعالم والطبيعة والوجود والإنسان، وهو كذلك أيضا لأنه يقدم تصورًا لبناء الاجتماع الإنساني، فيصبح بذلك شبكة متكاملة من النماذج الفكريّة والمسلكيّة تؤطر حياة من ينضوي تحت لوائه.[3] الدين هنا يمثل ثقافة بوصفه نمطًا من المعرفة بالوجود الطبيعي والاجتماعي.

وكون الدين ظاهرة ثقافية، فيمكن إثباته انطلاقا من تحليل أنظومة الثقافة بما هي تشمل ما هو مكتسب أي ما هو من ضع الإنسان. وكون الأمور الثقافيّة مكتسبة يفترض في الإنسان الذي يبتدعها دوافع أو حاجات، كالحاجة إلى المعرفة تلبيها في الأنظومة الدينية مجموعة من المعتقدات.[4] وهو ما ينبغي أن يعرفه الناس عن الكون وعن عالمهم.

وهذه العقائد تجد لها تعبيرا أوليّا، على الصعيد العفوي، في شكل القصص أو الأساطير. على هذا الصعيد يتميّز الفكر الديني اليهودي بكونه فكرًا أسطوريًا، بدليل أنه يضفي على المعتقدات شكلا روائيا تسرد فيه حوادث خلق الإنسان يعتقد فيها أنّها واقعية أو أنّ مصدرها الوحي الإلهي.

فوفقًا "لأوسنر"[5]، فإنّ أدنى مستوى يمكن أن نُرجع إليه أصل المفاهيم الدينية هو مستوى " الآلهة المؤقتة"، كما يسمّى تلك الصور التي تتوالد من الحاجة أو الشعور الخاص بلحظة حاسمة، وتنبثق من إثارة الخيال الديني الأسطوري، وتظل تحمل معها علامة تطايريتها القديمة وحريتها برمتها.

فلا تدل نصوص قصة الخلق في الأساطير السومرية والبابليّة ونظائرها في أسفار التوراة على مسند أو محمول مفرد، محدّد، بل نجد فيها جميعا شكلا خاصا ومتماسكا من الإسناد، ويمكن أن يوصف بأنّه الإسناد الأسطوري الديني.

فكلمة أسطورة تشمل هنا الرواية التي تبرر هذا المعتقد الديني أو السحري أو ذاك، والملحمة وخصوصيتها التفسيرية، والحكاية الشعبيّة، والسرد الروائي.[6] كما تشمل الأسطورة المدعمة للعقيدة الدينية، أو مذهبا فلسفيا أو حدثا تاريخيا أو رواية ملحمية.

فحضور الأساطير في المجتمعات ، تقدم لنا موقع الأسطورة في الشعائر والطقوس، والتي تحدد العلاقة بين عناصر الدلالة التي تحملها، أي العلاقة بين الأساطير والأنموذجات.[7]

---

[3]– عبد الغنى عماد: سوسيولوجيا الثقافة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1 ، 2006، ص: 138.

[4]– بولس الخوري: فلسفة الدين، دار الهادي، بيروت، لبنان، ط1 ، 2002م،ص: 52 .

[5] – نقلا عن أرنست كاسيرر: اللغة والأسطورة، ترجمة: سعيد الغانمي، كلمة للترجمة، أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، ط1 ، 2009م، ص: 117.

[6] – Bayard : Histoire des légendes, P.U.F , Paris ,France, p :10.

إن الأسطورة تنطوي على بنيّة تزامنيّة لكونها تكرارًا مستمرا ، ولكونها تحوي في ذاتها مبدأ دفاع وصياغة تنقله للشعائر والطقوس كما يقول " ليفي ستروس"[8]، وليست البنيّة التزامنيّة سوى ما يمكن أن نسميه "الاضفاء العقيدي" للأسطورة، بحيث أصبحت قصة من التراث الديني لا من التراث الإنساني، وهذا بعد شحنها بالرموز والمضامين والقيم الإنسانية، وما جملته من ضغوط وتحديات واستجابات تفضي إلى تعبئة "المخيال الجماعي" برموز وقيم وعادات وتقاليد من شأن استثمارها في الحقل الثقافي للمجتمع أن يعيد التوازن إلى الذات.

إنّ في طرحنا للتساؤل ما علاقة الأسطورة بالدين؟ فإننا نحاول تفسير حضور الأسطورة في النص الديني أو المعتقد الديني كتعبير عن المعتقدات والطقوس والعادات والشعائر،أي إبراز طريقة ثابتة الملامح في ممارسات الحياة الدينية والاعتقاد الديني ،بعد أن استقى من معين الأساطير، من التأسيس والتحرير إلى الاعتقاد والتقديس.

وبما أنّ الدين هو تنظيم علاقات بين الأفراد وبين الإله من ناحية ، وبين الإله وبين أفراد المجتمع من ناحية أخرى ، كان لابد من نص مقدس ينظم هذه العلاقة ، وبالتالي ظهور سلوك وممارسات تكون بمثابة تجسيد للدين باعتباره نسقا من الرموز المنظمة للعلاقة مع الله ومع الناس ، حسب المعتقد الديني والممارسات الدينية ،والشعور الديني ، والمعرفة الدينية ، والأثر الديني، وهنا تظهر الأنثروبولوجيا الدينية.

إن حضور الأساطير في المجتمع يفرض على المؤمنين سلسلة من المعتقدات، يفترض بها أن تلعب دور الموجه بالنسبة إلى أعمال الفرد في الإطار الاجتماعي الديني،إنّه ينطلق من فرضيات مسبقة هي فرضيات الإيمان، وعلى من يقبل بها أن يعمد إلى تبني سلسلة من المعتقدات. إنّها ثقافة إذًا بوصفها نمطًا "مغلق" من التعميم والطقوس والعادات والشعائر و والمعتقدات أي طريقة ثابتة الملامح في ممارسات الحياة الدينية والاعتقاد الديني.

وهي تمثل في الحالتين بنيّة عقلية كاملة للمجتمع بالمعنى الأنتروبولوجي للكلمة. أي نمطا من التفكير والسلوك يكتسب منطقا ذاتيا خاصًا. يمتنع فهمه أو تعليله بمعزل عن شبكة المعاني والدلالات الخاصة به، سواء من الناحيّة الاجتماعية أم من الناحيّة الثقافية.

---

[7]- جيلبير دوران: الأنتروبولوجيا: رموزها أساطيرها أنساقها، ترجمة: مصباح الصمد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط3 ، 2006م، ص: 337.

[8]- يراجع: ليفي ستروس، الأنتروبولوجية البنيوية، ، ص :254.

- جيلير دوران، مرجع سابق، ص: 342.